

معالم التجديد في شعر محمد قطب

الإعداد: الأستاذ شريف الله غفوري،

موقف الرسمي: الأستاذ المعيد بقسم اللغة العربية في كلية اللغات والآداب، بجامعة تخار، أفغانستان.

درجة العلمي: هو الحاصل على الماجستير الفلسفة في الأدب العربي بالجامعة العالمية الإسلامية ، إسلام آباد.

البريد الإلكتروني: Ghaffoori2019@gmail.com

الملخص

ظل الشعر العربي قبل عصر النهضة يدور في حلقة ضعيفة من الموضوعات الذاتية الفردية التي لاتمس روح الشعر ولا حياة الناس ولا شؤونهم العامة فغرق في نظم لاصلة له بالشعر غير الوزن والقافية الشعرية، لهذا ضعف فيه الخيال والصدق الفني والعاطفة وعمق التجربة، حتى حلَّ العصر الحديث، فبدأ فعاليته بظهور النهضة الشعرية الحديثة حتى ظهر تأثيره واضحاً في تغيير النمط الشعري المتبع في القصائد العربية، وخصوصاً مع ظهور الشعر العمودي والذي إرتقى إلى مرحلة جديدة من مراحل التجديد في الشعر العربي ومنذ ذلك الوقت ظهرت رغبة ملحة في التغيير والتجديد لدى الشعراء، لاسيما الأستاذ محمد قطب الذي بدأ حياته شاعراً وشارك في ميدان الشعر بعددٍ من القصائد التي نشرت -حسب نوعها وحسب موضوعاتها- في عدد من المجلات السائدة آنذاك.

تهدف الدراسة إلى ذكر حياته وموضوعات قصائده موزعة بين التأمل والحنين والشكوى والغزل والعظة إضافة إلى لون وجداني ساقته أحداث حياته. يرمي هذا المقال إلى كشف معالم التجديد في شعره، آخذاً بنظر الاعتبار أن شعره مازال بكاراً في مجال الأدب والفن.

الكلمات الرئيسية: محمد قطب، آثار التجديد، الموضوعات الشعرية، الشعر المصري المعاصر.

المقدمة

التجديد مظهرٌ من مظاهر الأدب، كما أن التجديد من مقتضى الفطرة والطباع، ومثلهما مقابلهما المحافظة على الأصالة، ولكل منهما موضع، فلا تناقض بينهما ولا تضاد. والتجديد هو ارجاع الشيء إلى ما كان عليه من أصله. وهذا ضروري في الأدب الحديث.

لأن التجديد المشروع يشمل كل ما تعزز به الأمة والدولة من العلوم والفنون والصناعات والنظم المالية والإدارية، ولكن تختلف أهداف التجديد في مجال الأدب و أيضاً تختلف منهج التأليف من كاتب إلى آخر، ولكن من السمات الظاهرة في الكتابات الإسلامية غياب الإبداع والتجديد، فالكتابة الأصيلة الجادة التي تقدم إضافة علمية جديدة قليلة جداً، إذا قورنت بالعدد الكبير الذي تنتجه المطابع، فمعظم الكتابات تكرر واجترار لا جديد فيها. أما في أوائل العصر الحديث فقد كانت بداية التجديد بالدعوة إلى العودة إلى أساليب الشعراء في عصور الازدهار، وأخذ هذا التيار بالنمو حتى وصل إلى ذروته على يدي أحمد شوقي وابو القاسم الشابي وعباس محمود العقاد وسيد قطب ومن ساهموا بالتأسيس لمفهوم شعري جديد فظهر تأثيره واضحاً في تغيير النمط الشعري المتبع في القصائد العربية، وخصوصاً مع ظهور الشعر العمودي والذي إرتقى إلى مرحلة جديدة من مراحل التجديد في الشعر العربي، فاعتمد هذا النوع من الشعر على موسيقى شعرية خاصة به مما يسهل فهمه عند القراء ومتابعي الشعر العربي. ومظاهر التجديد في الشعر العربي هي كافة التأثيرات التي أدت إلى تجاوز الشكل الثابت للقصائد القديمة والاعتماد على صياغة جديدة لها، ومن أهم هذه المظاهر: التجديد اللغوي، والتجديد في الصورة والتجديد في موسيقى الشعر.

ويبدو أن محمد قطب كان أقرب شعراء جيله من روح التجديد الراشد وأشدّهم تأثيراً برواد الشعر الحديث نظيراً وتطبيقاً. فإنّ الشيخ محمد قطب أصبح علماً من أعلام الإصلاح، ورائداً من رواد التجديد، وأحد أقطاب المدرسة الأدبية الحديثة في الفكر الإسلامي. له في الدعوة إلى الله جهود مشكورة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسنات مبرورة، وفي محاربة البدع والخرافة طريقة محمودة، وفي تأسيس منهج الفن الإسلامي مواقف مشهودة، وفي التأليف والكتابة مُصنّفات مشهورة.

وُلِدَ في قرية موشا في صعيد مصر عام ١٩١٩م، وتُوفِّي بمكة المكرمة عام ٢٠١٤م، ودُفِن - رحمه الله - بجوار المسجد الحرام في مقبرة المعلا. (٨: ١٩٠)

مشكلة الموضوع: إشكالية الموضوع ترجع إلى التجديد الذي يقود إلى العبث باللغة الذي يقوم به بعض الكتاب ويروجونه بين الناس، والفرق واضح بين التجديد في الأدب، وبين العبث باللغة، إذ أن هذا الأمر يمكن أن ينتج عنه نتائج خطيرة تتصل بفهم النصوص الشرعية وتفسيرها، ويؤدي إلى الاضطراب والخلخلة في فهم العقيدة والشرعية. ونحن بحاجة إلى التجديد أمام التحديات الحضارية التي ما زالت رياحها تهب من الغرب.

خلفية الموضوع: في حدود اطلاع الباحث على الملخصات والرسائل الأكاديمية في اللغة والأدب العربي، ومن خلال مراكز الأبحاث والمجلات الجامعية، لم أجد أي دراسة تناولت "معالم التجديد في شعر محمد قطب"، وعليه فإنه لا يُوجد دراسات سابقة لهذا المقال، ولكن كان لي بعض البحوث حول مآثر الأستاذ محمد قطب واسهاماته الفكرية والأدبية واستفدت منها في طيات البحث. وأيضاً هناك دراسات لها علاقة غير مباشرة بموضوعات البحث، وكذلك استفدت من دراسات مماثلة تناولت شخصيات أدبية أخرى.

هدفه وأهميته: هذه الدراسة مع ما لها من القيمة النقدية، تحاول الكشف عن معالم التجديد في شعر محمد قطب، لتكن إسهاماً في استجلاء معان جديدة في أشعاره، في هذا المقال من بعد المدخل، بدأت الحديث عن حياته بشكل موجز. وأشارت إلى ملامح التجديد والموضوعات الشعرية التي تكمن في أشعاره، وثمّ قمت بتحليل شواهد الشعرية التي قد اعتمد في تصويره على حاسة النظر فيها أكثر من اعتماده على سواه وأخيراً أشرت إلى نتائج المقال وتوصيات البحث.

إنّ الأسلوب الذي اعتمدت عليه في إعداد هذا المقال هو المنهج التحليلي مع ذكر بعض النماذج الشعرية التي نشرت في مجلة الرسالة والثقافة والكتاب.

مفهوم التجديد

ومفهوم التجديد: الاحتفاظ بالقديم، وترميم ما بلى منه، وإدخال التحسين عليه، «لأنّ التجديد إنما يكون لشيء قديم» (٩: ٢٧).

التجديد في الأدب: أعني بالعبارة الجملة التي يؤدّي بها المعنى على اختلاف ألوانها، من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية. (٥: ٣) إنّ التجديد في الشعر ظاهرة طبيعية تطورية في كل مكان وكل زمان وقد عرف الشعر العربي في تاريخه الطويل دورات تجديدية كثيرة.

صحوة التجديد

لغة: من الصحو، وهو ذهاب الغيم وارتفاع النهار، وذهاب السكر، وترك الباطل. واصطلاحاً: اليقظة، تصيب الفرد أو الأمة، بعد سنة وغفلة وتخلّف وتراجع. (١: ٤٥٢).

فصحوة التجديد هي الأخرى سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني وفي مسير الحضارات، وعن هذه الحقيقة ينبيء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي قال فيه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» (٣: ١٠٩).

وإذا كانت الحضارات الإنسانية هي اجتهادات بشرية وإبداعات مدنية، لا توصف بالخلود ولا بالإطلاق، ومن ثمّ يجوز عليها الموت وإخلاء الطريق لحضارات أخرى وارثة لأممها وشعوبها وتاريخها، بمعنى أن سنة الصحوة في الأدب يترادف مع التجديد والإصلاح في مظاهر الأدب وعناصره.

ففي كل أدب عناصر غير ثابتة يعتريناها تغير وينالها تجديد، هي قدر مشترك من عناصر اللغة والأدب خاضع للتغيير، قابل للتشكل، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة، وبالأساليب الأدبية، وبالحياة الاجتماعية، وغير ذلك.

وفي هذا النوع من عناصر الأدب يكون التغيير والتجديد. ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر القديم والشعر المعاصر، في التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك. ومن أجل هذا يمكن الأديب إذا عرض عليه نوع من الأدب، أن يعرف عصره ولو لم يعرف قائله؛ لأنه يستطيع أن يتبين خصائص كل عصر ومميزاته، ويطبق ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر.

إن أول أنواع التجديد وأبسطه تجديد الألفاظ، لأنها مادة الأديب الأولية، وحيوطه التي ينسج منها قطعه الفنية. وتجديد الألفاظ على ضربين:

(١) اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر، لأن لكل أمة في كل عصر ذوقاً خاصاً بها تختار ألفاظاً تناسبها وتأنس بها، وتمج ألفاظاً لا تستحسنها ولا تستسيغها، وذوق الأمة في حياة مستمرة، فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ، وأدباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة. فلو أن أديباً استعمل كلمة (هَبَيْخ) للجارية الحسناء لكفت في إسقاط قصيدته أو مقالته. ولو استعمل كلمة بُعاق للمطر أو السيل لدل على فساد ذوقه، وسوء أدبه، ومن أجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة. (٤: ١٣) فقد كان يستحسن من محمد قطب قوله:

فرحانة هي بالـغرام يضيء قلبي إني أحبك يا سعاد وأي حب!
حب فريد لن تريه بغير قلبي إني أتيه على الغرام (بنوع) حبي!

ولكن تكرار "الغرام" الآن ثقيلة في النطق على السامع، لأن الأدباء يقولون: فلان مُعَرِّم بفلانة، إذا اشتدَّ حُبُّه لَهَا، وهذا بديهي لا يحتاج إلى إطالة. وكل من لم يلتفت هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً، إنما يحيا الأديب يوم يوفق لاختيار الألفاظ الرشيقة التي تناسب ذوق عصره، والعصر الآن أميل إلى السرعة والاقتصاد، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابة.

لذلك أصبحت في معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار. (٢) ألفاظ تستحدث مع الزمن، تلك الألفاظ التي تسير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات، وما ابتكرت من فن وعلم ومعاني وآراء، واللغة العربية اليوم، قاصرة كل القصور في هذا الباب، فليس لدينا ألفاظ لكثير مما اخترع وابتكر، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربي فيها طويلاً ولما يستقر على حال. (٤: ١٣) وكان لقصور الألفاظ أثر كبير في ضعف الأدب. فكيف يستطيع الأديب أن يصف حجرة وكل ما فيها من أثاث ليس له ألفاظ تدل عليه؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية، وهو في كل خطوة يتعثر بأشياء لا أسماء لها؟ ولذلك يهرب كثير من الأدباء من التعبير الخاص إلى التعبير العام، فإذا أراد أن يصف رجلاً يلبس طربوشاً قال: إنه

يلبس عمارة أو قلنسوة، والحقيقة أنه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة، وإنما يلبس طربوشاً، وإذا أراد أن يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية، وهذا منتهى الفقر في التعبير. (٤ : ١٣)

كل هذا حقن الأفكار في أدمغة الأدباء، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرهما في الأدب العربي الحديث، وجعل الأدباء يفرون إلى الموضوعات الإنسانية العامة، والأفكار الميتافيزيقية، فإن نحن شئنا أن يكون الأدب ظلاً لحياتنا، وحياتنا الآن، وجب أن نحل مشكلة الألفاظ حتى يتحور الأدباء من أغلالهم، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم، وظل أدبهم غذاءً ناقصاً للأمة ليس فيه كل العناصر التي لا بد منها للحياة.

معالم التجديد في شعر محمد قطب

عملية التجديد في النتاج الأدبي للأستاذ محمد قطب تتميز بخصيتين:

أولاً: تملأ الفراغ الذهني بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة، وسلوك وعمل جديدين، ثانياً: لم يكن الرصيد القديم صالحاً للإحياء الفني في العصر الحديث. (١٥ : ٨) ومن أهم هذه الملامح التجديد الذي يظهر في الأعمال الأدبية التي ندرسها في النقاط التالية:

الف: مفهوم الشعر عند محمد قطب

محمد قطب الأديب الذي قدم حياته في سبيل الدعوة التي آمن بها، فهو ذات مكانة في العلوم الإسلامية ومقارنة الأديان، تضحيتته في سبيل الدعوة الإسلامية غطت شهرته الآفاق وذاع صيته في العالم. فهو في مجال الأدب جمع في خبرته العلمية بين البحث والتأليف والعمل الأدبي.

إن محمد قطب ذو أسلوب جديد في الأدب، حاول أن يقدم رؤية جديدة للفن الشعري، و وظائفه ومقوماته الفنية. فهو تحدث عن الشعر: «الشعر هو تعبير جميل عن النفس الإنسانية في أصفى حالاتها» (١٣ : ٤٧). وأيضاً تحدث عن مفهوم الأدب: «التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من خلال التصور الإسلامي لهذا الوجود» (١٥ : ٦) وتكلم عن مفهوم التعبير الفني: «التعبير الفني يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية مخزنة في باطن النفس، تسعى إلى التعبير عن ذاتها في صورة موحية» (١٥ : ٧)

فتعريفه يقترب من بتعبير شقيقه سيد قطب: «بأنه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية» (النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص ١٤) فالشاعر الحقيقي عندهما: «هو الذي يُحسّ بالحياة إحساساً عميقاً، ويترجم عنها للأحياء» (مهمة الشاعر في الحياة ص ١٤)

أراد الأستاذ محمد قطب في أشعاره أن يُوقظ الناس من سباتهم وغفوتهم المستديمة، ويفتح عيونهم أمام آفاق جديدة من الحياة لم يكونوا قادرين على رؤيتها بأفكارهم القصيرة وعقولهم الضعيفة.

أما التجديد في الشعر العربي فهو تغيير أصول الشعر بأسلوب يحافظ على المنهج الشعري ولكنه يضيف له تطورات مستحدثة أو غير مستخدمة من قبل، كما نقرأ في قصائده الشعرية.

ب: الموضوعات الشعرية

ولا تعجب إذا عددت التأمل والحنين والشكوى والغزل جديداً عند الأستاذ محمد قطب، وإن كان قديماً قديم الشعر العربي وما من شاعر إلا له في التأمل والحنين .. أبيات وقصائد. ولكن الجديد في التأمل لدى قطب، أنه أفرد قصائد بعينها، ولم يأت به عرضاً في ثنايا قصائده. كان حن لمجرد الحنين، ولأن شاعريته، وحواسه المرهفة، وتذوقه الحاد للشعر كانت تدفعه إلى القول في مختلف الأغراض، وإلى الإحساس بالحنين للأشياء كما هو الغرض، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره. فمنها:

١ - التأمل:

إنّ الشعر الجديد فيه الكثير من بساطة التعبير، بساطة تخفي وراءها عمقاً في المضمون، فقد بدأ الشاعر يتأمل في الأشياء ليكتشف ما فيها فلم تعد الموضوعات التقليدية التي تشفي غليل الشاعر؛ فقد تجاوزه إلى موضوعات فلسفية كنهوض الوجدان الإنساني وماشابه ذلك، ولذلك اتّسمت موضوعاته بالعمق والتأمل وإذا ألقينا نظرة سريعة على عناوين قصائده ندرك تياره الشعري المتحدث كما في قصائده : بعد الأوان... والضلال. (١٥ : ١٠) فعلى سبيل المثال، كما نقرأ في قوله:

غريب أنا في ذلك الكون كله على سعة في الكون توحى بإيناس
غريب بنفسى عن نفوس كثيرة غريب بفكري عن دنى ذلك الناس
وأحسب أنى تأته في غمارهم كماضل ومض في غمار الدجى القاسي

(١١ : ٤٤)

لقد كان الدافع إلى التأمل العميق لديه إحساس الحيرة والضيق الذي مني به من سوء الحياة واضطرابها، فظهر التأمل في شعره واضحاً في اتجاهين: أولهما: تأمله للحياة التي وقف عاجزاً أمام قدراتها التي أفقدته كل ما كان يحلم به من آمال وأمنيات، يتأملها بالبحث عن سرها والكشف عن غامضها ومجهولها، وثانيهما: تأمله لنفسه وما يطرأ عليها من أحوال وعقبات.

بالنسبة لتأمله للحياة صرفية بمرحلتين: أولهما مرحلة الحيرة والاضطراب الفكري والرغبة في الهداية، حيث عانى من حيرة عميقة صورها في الأبيات التالية من قصيدته:

ثمّ مرت بي دورات الليالي وانطوى السحر الذي غشّ خيالي
فإذا بالحق في الكون بدا لي وإذا الناس جميعاً في ضلال!
ما لذي يرجون في دنيا الزوال أنا والوهم الذي يشغل بالي

في غدٍ نذهب في طيات هاتيك الرمال ثم يمضي الكون في التيه المعتمى لا يبالي
(١٥ : ١٠)

وثانيهما: مرحلة الاهتمام إلى أمر في شأن الحياة، وهي مرحلة تتميز بالهدوء والاتزان، والإحساس بالقهر والغلبة على الأمر، وتمثلها هذه الأبيات:

ما حياة الأجسام؟ ما (واقع) العقل؟ سوى عالم من الديجور
كنت أهواك حين كنت خيلاً وانطلاقاً في عالم مذخور
كنت أهواك هل ترى كان هذا ماضياً؟ يا لشقوتي وكفوري!

(١٢ : ٤٥)

تُلح على ذهن الشاعر في المرحلة الأولى أسئلة كثيرة حول ماهية الحياة وغاية وجودها، أجراها في عالم الخيال والأوهام، الحياة الدنيا فانية والأيام المتحركة التي تنشأ من حركتها في النفس هذه الحيرة المعبرة عن الرغبة الدائمة في الجديد عن معبر الحياة، وعدم الركون والسكون في حركتها. لما فشل في الكشف عن سر الحياة تمنى -بدافع الحرص- أن يكشف الإنسان الأخير في الحياة هذا السر، فقال:

كيف أحيا وأنت لست بدينا ي تضئئها بنور غزير؟
وتثين في فنوني حياة وتمدينها بخصب وفير؟
سوف أهواك فكرة ذات حسن ورواء، رفاة في ضميري
سوف تبقي في فؤادي ذكرى لهوى مشرق وعهد نفير

(١٢ : ٤٥)

وانتهت المرحلة، مرحلة البحث عن سر الحياة إلى نتيجة غير مرضية، وهي أنه لن يصل إلى هذا السر. ولكن لامفر له من الوصول إلى مستقر في شأن تلك الحياة، ومن البحث لسفينته عن شط ترسو عليه، بعد طول الرحيل ووعورة الإبحار في القلق وعدم الاستقرار... وكان الشط الذي دعا إليه الشاعر سفينته الظلام:

أنت في الأرض تثقلين انطلاقي وتُمَدِّئَنِي كقيد الأسير
وتريدين لي حياة ظلام في نظام محدد مكرور

(١٢ : ٤٤-٤٥)

ذلك أنه قد انتهى إلى أن الحياة طريق غامض، والأقدار ألعاب في يد دهر ماهر، وأن الناس في الحياة رقيقوا الحال وبطيئوا القافلة، لا يعرفون لهم غاية ولا لوجودهم سبب، في موكب واحد إلى نهاية مجهولة. يبحر الشاعر في أعماق سر الحياة وفي الذات الإنسانية ولذلك كانت موضوعات هذا الشاعر مستحدثة وانعكاس جديدة كل الجدة وهي نتيجة لإحساسه.

٢- الحنين:

الف: الحنين إلى الماضي:

حنين الإنسان إلى الأشياء الحسنة واللحظات السعيدة في حياته ينشأ من فشله في تحقيق آماله في الواقع، فهو لا يفتأ يتذكرها، لأنها -من ناحية- تتركه أن يعيش لحظات يشعر فيها بالهدوء والراحة وسط ضغط الحياة ومرارة الواقع، ومن ناحية ثانية تعتبر مجالاً للتعبير -لا شعورياً- في البرهنة على قدراته، وأنه لا يزال قادراً على العطاء، وبالتالي لاتزداد خيبة أمله التي قد تؤدي به إلى الاضطراب. كما نقرأ في قوله:

هذه اللفتة تجتاح حياتي وحين موغل في جنباتي
ولهيب فائر في خفقاتي ليت شعري! بعد إن عشت زمانا في سبات
أقطع الأيام في صمت بليد وأناة! ما الذي أيقظ قلبي من سباته

(١٤ : ٤٠)

يعد الحال أول الأشياء التي حن إليها، لأنه عانى حياة ضيقة وعيشة صُلْبَة...، وها هو يصرح بذلك:

ما الذي هيج منه حرقاته أي شيطان ثوى في جنباته
يشعل الثورة فيه، ويغذي جمحاته! ويشيع اللفتة الحرة فتدكي رغبته؟

(١٤ : ٤٠)

وهنا نلمح العلاقة التي يقيمها الشاعر بينه وبين الحياة القاسية فهو يتحدث عن اثارة إحساسه في الكون، الأمر الذي يبعث على الحسرة والألم، ويدفع الشاعر إلى الصراخ والندامة:

أيها القلب! لقد عشت شقيا لم تذق من متعة الأحياء شيئا
قد تعشقت سرا با سر مديا عشت أيامك فيه، فكأن لم تك حيا

(١٤ : ٤٠)

لقد تميزت قصائده بميزات منها:

الف: صارت القصيدة عنده تجربة شعورية، قادرة على مخاطبة مشاعر الآخرين، وتحريكها وإثارتها.

ب: جعل الشاعر أجزاء القصيدة ترتبط بعضها حول موضوع واحد، تتحرك فيه نحو غاية محدّدة، وهذا ما حقّق لها وحدتها الفنيّة.

ج: اعتماده على الخيال إلى حدّ بعيد في بناء القصيدة ممّا جعلها بناءً تصويرياً، وهذا ما جعل القصيدة عنده لها مذاقاً خاصاً وجديداً.

ب: الحنين إلى السعادة

ومن الأشياء التي حن إليها الشاعر السعادة، حن إليها ولو بالكلام عنها، وها هو يذكر لأصدقائه السعادة التي أحاطت به، في الأيام الطويلة، كما نقرأ في قصيدة له بعنوان "فرحة":

وأنا سعيد أن أحب وأن تحبي سترين إعجابي بمن أهوى وعجبي
 وسترشفين خلاصة من كل ذوب ذوب الغرام وذوب تفكيرى وقلبي
 ذوب الحياة ممحضاً من كل شوب ذوب السعادة خالصاً من كل ريب

(٧٠ : ١٠)

ثم يطلب منها العودة، ليعود معها الحب والأمل في الحياة من جديد فيبين فضيلتها بقوله:
 ما أجمل الحب السعيد وأنت قربي وجمال همس كالطيور أوان أوب
 همس الحياة تحيطني من كل جنب وتحيطني وتحيط بالإعجاب حيي
 فرحانة هي بالغرام يضيء قلبي إني أحبك يا سعاد وأي حب!
 حب تسامى فوق كل هوى محب حب يرفرف كالحنان المستحب
 حب فريد لن تريه بغير قلبي إني أتيه على الغرام (بنوع) حي!

(٧٠ : ١٠)

وتنتهي رحلة الحنين بالشاعر في مصر، حيث كتب قصيدة نشرت في مجلة الرسالة العدد ٢٦٥ عام ١٩٣٨/٨/١م وعندئذ كان عمره تسعة عشر عاماً، كما هو يحكي: «كانت فتنة السجن الحربي بالغة الأثر في نفسي، إذ كانت أول تجربة من نوعها، وكانت من العنف والضراوة بحيث يمكن لي القول إنها غيرت نفسي تغييراً كاملاً من بعض الجوانب على الأقل .. كنت أعيش من قبلها في آفاق الأدب والشعر والمشاعر المهمومة.» (١٦ : ٢٨٠) ويتحدث عن عذوبة الحياة وعن ارضاء حياته بما بساخذ دون غضب، وفيها يقول:

أعطيك ما قد شئت عذباً أي عذبا أعطيك حتى ترتوي حتى تعبي
 أعطيك. لست بأخذ أبداً. وحي! إلا الجمال فإنه هو وحي قلبي
 هاتيه كيف أردت من دل وعجب إني رضيت بما سأخذ دون غضب!
 أفأنت راضية وحظك سوف يُرى؟

(٧٠ : ١٠)

٣- الشكوى:

الشكوى من الحياة التي أدركها الخريف فصارت فقاراً مجدبة، خالية من كل حسن وخير، يملؤها الأسى والحزن، ويخيم عليها الركود والوجوم، وقد وجد في نفسه ملاذاً من قسوة الحياة فهو لاشك غريب فيها، كما نقرأ قصيدته بعنوان "غريب":

غريب أنا في ذلك الكون كله على سعة في الكون توحى بإيناس
 غريب بنفسى عن نفوس كثيرة غريب بفكري عن دنى ذلك الناس
 وأحسب أنى تائه في غمارهم كماضل ومض في غمار الدجى القاسي

و ما نلتقي في خفقة أو وشيجة ولا فكرة عليا ولا طيف وسواس
و ما بيننا من رابط غير أننا نجوب معاً دنيا من الحلك الكاسي
تري أينما أصفى ضميراً وعنصراً ومن فيه صدق أو سلامة إحساس

(١١ : ٤٤)

وإذا كان قد استعز بنفسه واعتصم في حصنها من الواقع المؤلم، فإن النفس مهما كانت قوية لا تستقر على حال واحدة، فما أكثر اضطراباتها وما أوهنها أمام قسوة الحياة وضغط الواقع، وخاصة إذا ضعفت سيطرة الوازع الديني عليها.

فالإنسان لا يستطيع أن يقطع صلته بالحياة والناس حوله لأن في الحياة آمالاً وغايات، وبينه وبين الناس روابط وعلاقات. ومن ثم لا غرابة في أن نجد الشاعر يشكو من نفسه لأنها أرتته الحياة والكون على غير ما يحب ويهوى، فقال:

لأحسب في دنياهم كل ضلة وأحسبها دنيا شرور وأرجاس
لقد كنت قبل اليوم هيمان في الذرا أحلق نشواناً إلى كل مرتاد
يفيض بنفسه الفن بشراً وغبطة ويهتف في أذني كالطائر الشادي
ويخلق في نفسي مئى عبقرية ويلهمني الإحساس كالكوكب الهادي
ويمنحني صفو الحياة وذخرها وأجمل ما يهفو له الناهل الصادي

(١١ : ٤٤)

بين الإرادة القوية والحياة القاسية ينشأ صراع مرير تأتي مرارته من الإحساس بمرور الزمن أمام النتيجة الخاسرة، فالأيام تمر والحياة لا تريد أن تتخلى عن قسوتها فيحقق المرء آماله وأحلامه، والشاعر لم يملك من أمر الحياة شيئاً، وبالتالي لم يشأ للزمن أن يمر ولا للأيام أن تنقضي، وإذا مرّ يتحسر ويتألم على مروره... فيقول:

فأشبع حبي للحياة نقية ويسمو إلى خلد السماء فؤادي
فأرقب هذا الناس في ديوانه كما أرقب الأنعام تنساب في الوادي
فيأخذني رفق بهم في ضلالمهم يهيمنون في دنيا الظلام بلا حادي

(١١ : ٤٤)

والإحساس بالزمن على هذا النحو يولد لدى الشاعر التفكير في الخلود والبحث عن سر الحياة والذات الإنسانية في الكون.

ج: الخصائص الشكلية

لم يكن تطوّر المضمون يخلو من تطور الشكل؛ لأنّ تطور في أحدهما يعني تطوّر الآخر بالضرورة. فثمة من يقول محتوى الشكل وشكل المحتوى ولذلك كان لكلّ محتوى جديد شكله الخاص به ولكل شكل جديد محتوى جديد (٦: ٣٨). قد عرف الشعر العربي في أقطار مصر والسودان منذ أواخر القرن الماضي محاولات لتجديد شكل القصيدة العربية فعرف الشعر المرسل والمزدوج والنظام المقطعي وشعر التفعيلة الذي جاء في نهايه النصف الأول من القرن العشرين وكان لابدّ للشعر المصري من أن يتأثر بالأشكال الجديدة كما تأثر بالمحتوى، فعرف الشعر الجديد الشعر المرسل والنظام المقطعي وشعر التفعيلة وشاعت فيه الأوزان الغنائية الخفيفة.

- الشعر المرسل

هو الشعر المتحرّر من القافية الواحدة ولكنه لا يخرج على وحدة الوزن ومن أمثلة ذلك قصيدة "كنت أهواك" للأستاذ محمد قطب وهي من البحر الخفيف:

كيف أحيا وأنت لست بدينا ي تضيئها بنور غزير؟
وتبثين في فنوني حياة وتمدينها بخصب وفير؟
سوف أهواك فكرة ذات حسن ورواء، رفاة في ضميري
سوف تبقيين في فؤادي ذكرى لهوى مشرق وعهد نغير

(١٢: ٤٤-٤٥)

إنّ هذا التنوع في القوافي يكسر سيطرة القافية الواحدة من جهة و ينوّع الموسيقى من جهة ثانية ويعينها وذلك بتغيير حرف الرّوي وحركته فنجد هذا التشكيل الموسيقي الجديد المتناوب في أكثر قصائده.

الف: الموسيقى والايقاع

بدأت موسيقى شعر الأستاذ محمد قطب تميل إلى الحياة والعصرية أكثر ممّا تميل إلى محاكاة الشعر القديم وبدأت الألفاظ العذبة تتسلل إلى هذا الشعر على استحياء ثمّ تدفقت إليه مع الشعر الواقعي تدفقاً سريعاً وباتت لاتقع على لفظة وحشية أو في غير مكانها وبدأ شعر الطبع والسهولة يهيمن على الشعر الجديد وبخاصة بعد أن بدأ الشعراء يرحلون عن وطنهم إلى أماكن أخرى في الوطن العربي أو سواه. فهيمن شعر الحنين الجارف وظهرت العاطفة صادقة وأصبحت لغة الشعر من السهل الممتنع وهي أقرب إلى لغة الغناء والرسائل الوجدانية التي تصل إلى أذن المتلقي دون عناء ومن هؤلاء الشعراء الأستاذ محمد قطب الذي تغرب عن وطنه في المملكة العربية السعودية ، يقول في إحدى قصائده و هي بعنوان "غريب":

غريب أنا في ذلك الكون كله على سعة في الكون توحى بإيناس
غريب بنفسى عن نفوس كثيرة غريب بفكري عن دُنَى ذلك الناس
وأحسب أنى تائه في غمارهم كماضل ومض في غمار الدجى القاسي
وما نلتقي في خفقة أو وشيجة ولا فكرة عليا ولا طيف وسواس

وما بيننا من رابط غير أننا نجوب معاً دنيا من الحلك الكاسي
تري أينما أصفى ضميراً وعنصراً ومن فيه صدق أو سلامة إحساس
لأحسب في دنياهم كل ضلة وأحسبها دنيا شرور وأرجاس
لقد كنت قبل اليوم هيمان في الذرا أحلق نشواناً إلى كل مرتاد
يفيض بنفسه الفن بشراً وغبطة ويهتف في أذني كالطائر الشادي
ويخلق في نفسي مُنى عبقرية ويلهمني الإحساس كالكوكب الهادي
ويمنحني صفو الحياة وذخرها وأجمل ما يهفو له الناهل الصادي

(١١ : ٤٤)

ب: ظاهرة التكرار

إنّ التكرار هنا في كلمة "غريب" ثلاث مرّاتٍ في كلّ بيت ينقّب عن طبقات المعنى ويقوم بدور "التعويض" عن تلك الحالة الشعورية المسيطرة على الشاعر، ليصل إلى العمق المطلوب وهو التعبير عن اغترابه: إنّ الغربة التي يعيشها محمد قطب، ليست غربةً عاديةً يعيشها أيّ إنسان غريب يسكن خارج وطنه بعيداً عن أحبابه وأقاربه؛ إذ أنّ محمد قطب كما صرّح في هذه الأبيات يُقيم وسط أصحابه وأقرانه ويتمتع برعايتهم وعطفهم وحنانهم. إنّما يكون هذا الاغتراب الذي بداخله أمراً ناجماً عن شعوره بالوحدة والانفراد في عالم الكون، فهو غربة فكرية إن جاز التعبير، من أجل ذلك نرى أنّ محمد قطب ينادي وبكلّ وجد وانفعال من يُعينه ويناصره على حمل هذا الشعور الاغترابي لعله يخفّف من وطأته التي تكاد تزول منها الجبال.

غريب بنفسه عن نفوس كثيرة غريب بفكري عن دُنى ذلك الناس
وأحسب أني تائه في غمارهم كماضل ومض في غمار الدجى القاسي
نلاحظ في هذه الأبيات وسواها تأكيد الأستاذ قطب على هذه الغربة الروحية واعتباره أشدّ وأقوى من الغربة الجسمية؛ إنّه يتخيّل نفسه منفرداً في وادٍ غريب لا صديق فيه ولا أنيس وهو محاط بالأحزان والأشجان. قد نرى أنّ الشعراء المجدّدين لم يكتفوا بشعر الطبع والسهولة واقترب لغة الشعر من لغة الحياة وإنّما لجأوا أيضاً إلى الأوزان الخفيفة للتعبير عن إحساساتهم فبدأ الإيقاع سريعاً وبدأت حركته متواترة متدفّقة، نابضة كنبض العصر وقلّما نجد في قصائده أوزاناً طويلةً كالمديد والخفيف والبسيط والطويل التي كانت تهيمن على الشعر التقليدي ولجأ الشاعر أيضاً إلى المجزوءات الشعرية.

النتائج الهامة

الشعر المصري المعاصر إتّجه نحو التيار الذاتي والنزعة إلى التأمل والعمق والموضوعات الجديدة وتناول أغوار النفس الإنسانية. وله خصائص شكلية خاصة به منها الشعر المرسل، أو خفيف الوزن أو نظام المقطعات أو شعر

التفعيلة وتنوع الشعر المصري المعاصر في القافية والموسيقى والإيقاع الشعري. والبنية الفنية للقصيدة الجديدة في مصر عرفت تحولاً نوعياً في مدرسة التجديد في الشعر المعاصر العربي. فشعر مصر العربي في مدرسة التجديد يكون متعدد المناخات والموضوعات والأساليب ويصف أفقاً ما وهو شعر الوضوح فلذلك لا يواجه مشكلة الإتصال بين الشاعر المتلقي التي يواجهها الشاعر المعاصر في بعض الأقطار العربية. النتائج التي تم التوصل إليها عبر هذا المقال:

١- إن الأستاذ محمد قطب اتخذ أسلوباً جديداً في شعره غير الأسلوب الذي درج عليه معاصروه، فهو نادى بالصحوّة الإسلامية والإصلاح والتجديد.

٢- نشأ الأستاذ محمد قطب -رحمه الله- نشأة صعبة، إلا أنه امتاز بهمة عالية وتصميم كبير جعلاه من الشخصيات الإسلامية البارزة في العصر الحديث التي أبدعت في مجالات متعددة دون أن يحصر نفسه في مجال علمي واحد.

٣- إنه استطاع أن ينتقل بالخيال الشعري من السطحية إلى التعمق في أغراض الشعر معتمداً على التجديد فجعل الصور متحركة مرئية ملموسة.

٤- إنه من الأوائل الذين أرسوا مزايا الشعر الإسلامي وانعكست مزايا المجتمع الإسلامي في شعره، ودعا المحبين أن يسيروا على نهجه في منهج الفن الإسلامي.

٥- كان أول من تنبه من الشعراء المعاصرين إلى أن الشعر تعبير جميل عن النفس الإنسانية، لا مجرد أفكار عاطفية محضة ولا رياضة ذهنية ومقدرة كلامية، عرفه في كتاب منهج الفن الإسلامي ونص ذلك على عناصره الجوهرية.

شعر الأستاذ محمد قطب يحمل بصمات واقعه الإسلامية كما هو يصرح في كتابه (منهج الفن الإسلامي ص ٦٦) يميل إلى الأدب الشرقي العرفاني متأثراً بأدب العقاد والحافظ الشيرازي إلا أن النزعة الواقعية عند محمد قطب تمتاز بالترابط الموضوعي والوحدة العضوية بين أجزاء قصيدته واعتماده في بناء القصيدة على الخيال المجنح مما جعل شعره لوحات تصويرية فنية. يعدّ التناص القرآني من أبرز التقنيات الفنية التي عني بها محمد قطب في شعره والسبب في ذلك ربّما يكون تأثره الشديد بالتعاليم الإسلامية والقرآنية. كما برز في دراسته بـ«دراسات قرآنية» حيث إنّه أضفى على قصائده روح الحياة والحركة حتى تحوّلت عناصر قصائده الفارقة للحياة إلى عناصر حيّة ترتبط ارتباطاً ديناميكياً فيما بينها؛ فشعر محمد قطب أشبه ما يكون بالداء الذي تُعرض فيه لوحات تصويرية حيّة انتزعها الشاعر من مظاهر بيئته التي عاشها منذ طفولته وحتى بلغ أشده.

في البداية سيطر على شعره الحبّ العرفاني بكلّ رموزه ودقائقه؛ فالحبّ الذي يتحدّث به الشاعر في غزله ليس على غرار الحبّ الإباحي الذي يتغنّى به شعراء الفسق والمُجون بل إنّه الحبّ الذي يقدّمه إلى المحبوب السماوي وهو بعيد كلّ البعد عن العشق الشهواني الذي يكثر عند أصحاب الغزل الجسدي. اهتم محمد قطب بشعر محمد إقبال

اهتماماً بالغاً. فاستقى من مناهله العذبة حد الارتواء فهو يعتبر شعر إقبال وجبة شهية يتغذى بها التصور الإسلامي وإنه مصدر ابداع تستوحي منه الأمة، المزيد من مفرداته ومضامينه العرفانية. وردت في قصائد محمد قطب أشعار يروي خلالها قصة واقعية يبدي عبرها أفكاره وآراءه تجاه الكون والحياة. ظاهرة التكرار تمثل عنصراً جوهرياً حاسماً في شعر الشاعر، فيكون لأسلوب التكرار الحضور المكثف في نسيجه الشعري، واستخدم الشاعر هذه الآلية الفنية في عملية نقل تجاربه الشعورية؛ إذ لها مفعولها الكبير في إقناع المخاطبين دون أن يشعروا بالملل والضجر.

التوصيات:

- ١- إعداد جميع ما أنشده الأستاذ محمد قطب، من الأشعار والقصائد والأناشيد والحماسيات في ديوان معين.
- ٢- كتابة المزيد من الأبحاث العلمية المحكمة والرسائل الجامعية في شتى المجالات التي أبدع فيها.
- ٣- التحقيق في كتب الأستاذ محمد قطب، واثراء المكتبة العربية بها؛ لأنها تناقش الغزو الفكري في واقعنا المعاصر.
- ٤- تفريغ جميع محاضرات الأستاذ محمد قطب، المرئية والمسموعة على هيئة كتاب على أيدي بعض طلبة العلم المتخصصين والمخلصين.
- ٥- جعل كتب الأستاذ محمد قطب مقررات أساسية في الجامعات والمعاهد والمدارس الدينية أو كتب مساعدة لمقررات الجامعات أو غيرها؛ وذلك لسهولة عبارتها وعمق فكرتها.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي. (١٤١٤هـ). *لسان العرب* ج ١٤، بيروت: دار صادر.
- ٣- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق. (٢٠٠٠م). *سنن أبو داود* ج ٤، ت: محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، صيدا.
- ٤- امين، أستاذ أحمد. (١٩٣٣م). مقالة التجديد في الأدب ٢، مجلة "الرسالة" ع ٧، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ٥- امين، أستاذ أحمد. (١٩٣٣م). مقالة التجديد في الأدب ٢، مجلة "الرسالة" ع ٦، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ٦- رضايي، غلامعباس وشرافت كريمي. (١٤٣٤هـ). *التجديد في الشعر الحجازي المعاصر*، مجلة "اللغة العربية وآدابها" س ٩، ع ٤، ص ٣١-٥٣، طهران: جامعة طهران.
- ٧- غفوري، شريف الله. (٢٠١٦م). *أدب المقال عند محمد قطب* ج ١، إسلام آباد: نشر الجامعة الإسلامية العالمية.
- ٨- غفوري، شريف الله. (٢٠١٨م). *دراسة موجزة في أشعار محمد قطب*، المجلة العلمية "جامعة تخار" س ٤، ع ١٢، ص ١٨٨-١٩٢، طالقان: جامعة تخار.
- ٩- قرضاوي، د. يوسف. (١٤٠٦هـ). *الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد*، القاهرة: دار الصحوة.
- ١٠- قطب، محمد (١٩٣٨م) *القصيدة بعنوان فرحة*، مجلة "الرسالة" ع ٢٦٥، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ١١- قطب، محمد. (١٩٤١م). *القصيدة بعنوان غريب!*، مجلة "الرسالة" ع ٤٠٩، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ١٢- قطب، محمد. (١٩٤١م). *القصيدة بعنوان كنت أهواك*، مجلة "الرسالة" ع ٢٧، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ١٣- قطب، محمد. (١٩٤٥م). *البريد الأدبي*، مجلة "الرسالة" ع ٦٣٢، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ١٤- قطب، محمد. (١٩٥١م). *القصيدة بعنوان بعد الأوان...!*، مجلة "الرسالة" ع ٩٢٣، القاهرة: نشر إدارة المجلة.
- ١٥- قطب، محمد. (١٩٨٣م). *منهج الفن الإسلامي*، ط ٦، بيروت: دار الشروق.
- ١٦- المجذوب، محمد. (١٩٩٢م). *علماء ومفكرون عرفتهم*، ط ٤، الرياض: دار الشواف.

Milestones of modernization in Mohammed Qutb poems

Abstract

Some Arab critics and historians believe that if we cast a look at complete poetical work of Mahmoud Qutb, we will realize that he has not brought anything new into poetical affairs and technical form of poem. And also he has not stepped out of the current issues of his own age. Qutb's poetry has been divided into panegyric, lampoon, glory, and rhyming and his sensational prospective rooted in current events of his time.

These critics have come to this belief that Qutb has implemented special innovation in his poem just in the fluency and using great style in comparison to his contemporary poets.

Even though Qutb imitated the past generations and challenged them in their style and subjects, we can find obvious innovation in his poetry in regard to expressing his feeling and perception. He has exhibited novel concepts and innovative pictures that are unprecedented.